مجلة سوسيولوجيا
ISSN 2602-5647
EISSN2661-7803
المجلد04/ العـدد: 02 (ديسمبر 2020)، ص 100- 116

النّشاط الدّينيّ للعائلات التّلمسانيّة بمدينة " تلمسان ":قراءة في التّموقع الاجتماعيّ.

religious activity of Tlemcenian families in the city of Tlemcen:readingsocial positioning

دالي أحمد شكيب[1]، رمعون حسان [2]
DALLI Ahmed chakib[1], RAMAOUN Hassan[2]
[1] جامعة مُحَمَّد بن أحمد-وهران، chakitashi11@yahoo.fr
[2]جامعة مُحَمَّد بن أحمد-وهران-

تاريخ الاستلام:2019/11/09 تاريخ القبول: 2020/09/04 تاريخ النشر: 2020/12/27

الملخص :يلعب الأعيان والوجهاء دورا مهمّا في تطوّر المدن وتفعيل الحراك الاجتماعيّ والاقتصاديّ بها، لتصبح إسهاماتهم تلك من بين العامل المحوريّة في رسم معالم تاريخها، ونظرا لهذا الدّور الفعّال لهذه الفئة الاجتماعيّة فقد صارت مثار اهتمام الدّراسات الأنثروبولوجيّة الحديثة الهادفة إلى استجلاء طبيعة الآليّات القائمة وراء فعاليّة هذه الشّريحة الاجتماعيّة وعمق هذه الفعاليّة والأسباب الكامنة وراء استمراريّتها لدى بعض العائلات، ومدينة " تلمسان " نظرا لاعتبارات تاريخيّة تعتبر من بين المجتمعات الّتي لا تزال تأثيرات بعض العائلات بها واضحة وملموسة لغاية أيّامنا هذه، وفي هذا السّياق عمدنا إلى الحديث عن إحدى هذه العائلات الوجيهة من خلال التّطرّق لإسهاماتها في تفعيل الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة بها، والّتي هي عائلة " العشعاشي " التّلمسانيّة ذات الأصول الأندلسيّة.

الكلمات المفتاحيّة: العائلات الأندلسيّة – التّلمسانيّة، العشعاشي، الذّاكرة العائليّة، الطّرقيّة، النّضال السّياسيّ.

Abstract:Notables play a remarkable role in the development of cities by fueling its socio-economic movement, so their contributions will be among the key factors in the development of its historical drawings. In view of this role, this social caste has become a field of interest for modern anthropological studies aimed at understanding the nature of the mechanisms behind the effectiveness of this caste and the extent of such effectiveness, as well as the causes which fuel its continuity in certain families, and the city of Tlemcen for historical reasons is considered as one of the societies where the influences of certain families remains until today noticed and felt. It is in this way that we spoke of one of them by mentioning its contributions in its socio-economic life, and which is the famousTlemcenian family "Lachachi" native of Andalusia.

Key words: Andalusian - Tlemcenian families, Lachachi, family memory, sects, political commitment.

المؤلف المرسل: دالي شكيب ، **الإيميل**: chakitashi11@yahoo.fr

1. مقدمة:

يرى علماء الاجتماع في الأزمات أحد أهمّ روافد إعادة بناء الأنساق والمؤسّسات الاجتماعيّة ذلك لأنّه بغضّ النّظر عن البعد السّلبيّ النّاجم عنها حين ظهورها فإنّ بعضا من نتائجها البعيدة المدى تفرز تغيّرات إيجابيّة، لذا فإنّها في نظرهم مؤشّر على صحّة هذا المجتمع الّذي تفاعل مع الظّروف المحيطة متّخذا حلاّ لما استعصى منها بتبنّي مظهر أزماتيّ، والمجتمع التّلمسانيّ لم يشذّ عن هذه القاعدة حين استقبل في ظروف حرجة الوافدين الأندلسيّين، إذ كان (لسقوط " غرناطة " في 02 جانفي 1492 م آثارا بالغة الأهمّيّة ليس على مستقبل الوجود الإسلاميّ في " الأنـدلس " فحسب، بـــل على المستقبـل السّياسيّ لـدول شمال إفريقيا كلّها وعلى " الجزائر " خصوصا، ولذلك فإنّه كما كان سقوط " غرناطة " بداية لتاريخ " إسبانيا " الحديث، فإنّه يمكن اعتباره أيضا بداية لتاريخ " الجزائر " الحديث، وذلك بالنّظر إلى النّتائج الّتي ترتّبت عن هذا الحدث، إذ نظرا لتوجّه السّياسة الإسبانيّة بدعم وتحريض من الكنيسة الكاثوليكيّة إلى تنصير المسلمين وإنهاء الوجود الإسلاميّ بالأندلس) (محمّد درّاج، 2015 م، ص 64)فقد غادرها الكثير من الأندلسيّين إلى الشّمال الإفريقيّ.

2. الظّروف المعيشية للأندلسيّين وأثرها في نزوحهم إلى الدّيار المغاربيّة:

وتحت ظروف القهر والإرهاب الّذي كان يعيشه المسلمون في " الأندلس " اضطرّ عدد كبير منهم إلى مغادرة تلك الأرض والهجرة إلى بلدان شمال إفريقيا والاستقرار بها، خصوصا " الجزائر " الّتي كانت تعيش أوضاعا خاصّة شجّعت أعدادا كبيرة منهم على الهجرة إليها والاستقرار بها، بينا لم تكن ظروف " تونس " في أواخر العهد الحفصيّ تساعد على استقطاب أفواج المهاجرين إلاّ بعد استقرار العثمانيّين بها،

وأمّا " المغرب " فبالرّغم من علاقاته التّاريخيّة وروابطه البشريّة وقربه الجغرافيّ من " الأندلس "، فإنّه لم يعرف هجرة جماعيّة تماثل ما حدث في " الجزائر "، فقد استوطن عدد كبير من مهاجري " الأندلس " المدن السّاحليّة الجزائريّة مثل : " تنس " و " بجاية " و " الجزائر " و " وهران "، وكذلك الدّاخليّة مثل " المسيلة " و " تلمسان "، كما أدّت الهجرة الأندلسيّة إلى نشوء مدن جديدة ذات طابع أندلسيّ مثل " البليدة " و " القليعة " اللّتان أقطع " خير الدّين بربروس " أراضيهما لمهاجري " الأندلس " (محمّد درّاج، 2015 م، ص 64 - 65).

3. تأثيرات المهاجرين الأندلسيّين في الحياة الاجتماعيّة بالدّيار المغاربيّة:

لقد فرض المهاجرون الأندلسيون على المدن الّتي شكّلوا فيها أغلبيّة سكّانها الصّبغة الأندلسيّة خصوصا " الجزائر " و " دلّس " و " والمديّة " و " قسنطينة " و " تلمسان " وغيرها من المدن، وهكذا فإنّه باستيطان العنصر الأندلسيّ في مدن شمال إفريقيا و " الجزائر " خاصّة قد تمّت إعادة تشكيل الخريطة الدّيمغرافيّة لهذه المدن الّتي عرفت بتمدّنها وتطوّرها الفنّيّ والعمرانيّ مقارنة مع غيرها من المدن الأخرى) (محمّد درّاج، 2015 م، ص 64 - 65).

وقد كانت " تلمسان " باعتبارها عاصمة الدّولة الزّيانيّة منطقة جذب مهمّة بالنّسبة لهم وإحدى وجهاتهم المفضّلة خصوصا إذا إذا علمنا أنّ الأندلسيّين كانوا إذا ذكروا هذه المدينة (يقولون من مدن " الأندلس " لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها) (ابن سعيد الغرناطيّ المغربيّ، 1982 م، ص 140)، وقد وفدتها العديد من العائلات التّلمسانيّة الّتي هاجرت مبكّرا ديار الأندلس، و (أوّل من غادر " الأندلس "من المسلمين هم سراتها ونخبتها) (محمّد الطّالبي، 1975 م، ص 51) وإن لم تعدم هذه المدينة من

بعدهم تدفّق النّازحين إليها منهم، ووفودهم إلى الحواضر الكبرى – ومـــن بينها " تلمسان " – ليس من قبيل الصّدفة، إذ بها تتاح لهم الفرص لتبوّأ مناصب مهمّة، خصوصا وأنّ الكتابات عندما تصفهم تشير إلى صفة مهمّة تميّز بها أهل " الأندلس " عمـوما وهي أنّ (المـزاحمة على مناصب الدّولة كانت بينهم شـديدة) (محمّد الطّالبي، 1975 م، ص 60) ، وهذا ما يكون قد أدّى إلى ظهور صراع بينهم وبين ساكنة " تلمسان " على المناصب، وقد رجحت كفّة هذا الصّراع للوافدين الجـدد لعـدّة أسباب ليست مجال بحثنا هنا، إذ ما يهمّنا هنا هـو الحديث عن التّأثيرات النّاجمـة عن قـدوم وتوطّن هؤلاء الوافدين " تلمسان "، ولكن لن نتطرّق لهم بصفة إجماليّة مثلما نجده في الكثير من كتابات المؤرّخين الّذين تناولوا هذه المسألة حيث يتحدّثون عنهم بضمير جمـع الغائب، ولنا في " أبــو القاسـم سعد الله " مثالا على ذلك حين حديثـه عنهم قائلا : " وقد وجد هؤلاء المهاجرون في " الجزائر " أرضا كأرضهم وأهلا كأهلهم فاستوطنوا وأسهموا في الحياة الاجتماعيّة بإدخال عنصرين رئيسيّين، الأوّل مضاعفة الكفاح ضدّ " الإسبان " في البحر والثّغور دفاعا عن النّفس، والثّاني نشر أنماط حضارتهم بين الجزائريّين، وكانت " الأندلس " إلى آخر عهدها، رغم ضعفها السّياسيّ، هي المرحلة الرّاقية من تطوّر الحضارة العربيّة الإسلاميّة، فارتقت بوجودهم العمارة وصناعة الطّبّ والموسيقى والزّراعة والصّنائع والحرف والتّجارة والتّعليم والخطّ والوراقة وصناعة الكتب، وهكذا أصبح الأندلسيّون، على مرّ السّنين، يشكّلون عنصرا بارزا مؤثّرا من السّكّان بحركتهم التّجاريّة وذكائهم وعلمهم وصنائعهم ومهارتهم في البحر) (أبو القاسم سعد الله، 2007 م، ص 148 – 149) ، كما لن نتطرّق لهم في سياق زمنيّ محدود، بل سنخصّص مقالنا هذا للحديث عن إحدى هذه العائلات الّتي وفدت مدينة " تلمسان " وتأثيراتها بهذه المدينة في سياق زمنيّ متّصل، مرتكزين

في ذلك عمّا يعـرف في الـدّراسات الاجتماعيّة باسم " الذّاكرة العائليّة " إضافة إلى الأرشيف الّذي يدعم مرويات هذه الذّاكرة.

4. العائلات الأندلسيّة الوافدة إلى مدينة " تلمسان ":

غير أنّنا نـرى أنّه من المهمّ قبل أن نفرد هـذه العائلة بالحديث يتعيّن علينا أن نـورد إجمالا العائـلات الأندلسيّـة الّتي وفدت " تلمسان "، والّتي من بينها عائلة " العقباني " المشهود لها بطول الباع في العلم والرّسوخ في الفقه والتّصوّف، وقد اشتهر من بنيها (" إبراهيم بن قاسم بن سعيد بن محمّد أبو سالم العقبانيّ التّلمسانيّ "، ولي خطّة القضاء بهذه المدينة ، و " أحمد بن محمّد بن قاسم العقبانيّ " الّذي تصدّر للتّـدريس بجامـع " القرويّين "، و " أحمد بن قاسم بن سعيد بن محمّد العقبانيّ " الّذي كان قاضيا بـ " تلمسان "، وكذلك تولّى بها القضاء من هذه العائلة " سعيد بن محمّد بن محمّد بن محمّد التّجيبيّ العقبانيّ التّلمسانيّ "، و " عبد الواحد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقبانيّ ") (عادل نويهض، 1980 م، ص 236) ، وقد وفدت إلى " تلمسان " قادمة من مدينة " العقبانيّة " بـ " الأندلس " حسب رواية المنتسبين إليها، وكذلك عائلة " بادسي " الّتي ذكر لنا أحد أفرادها أنّهم ينحدرون من نسل " باديس بن حبوس الصّنهاجيّ " حاكم " غرناطـة "، وعائلة " بسطاوي " المنسوبة لمـدينة " بسطة " الأندلسيّة، وكذا عائلة " قرموني " المنسوبة لمدينة " قرمونة "، علاوة على عائلة " بن عمّار " الّتي تعدّ من كبريات العائلات العلميّة والسّياسيّة والإداريّة، استوطن بعض أفرادها " تلمسان "، وهي ترجع بنسبها لـ (" محمّد بن عمّار بن الحسين بن عمّار المهريّ القضاعيّ، أبي بكر " (422 هـ - 477 هـ / 1031 م - 1084 م) الملقّب بـ " ذي الوزارتين "، وهو شاعر وسيّاسيّ أندلسيّ استوزره " المعتمد بن عبّاد " حاكم

" إشبيليّة " ثمّ سخط عليه فقتله) (المنجد في الأعلام، 1969 م، 357 بتصرّف) ، وقد اشتهر منها كذلك (" أحمد بن عمّار الأندلسيّ الجزائريّ " المتولّي لوظيفة الفتوى على المذهب المالكيّسنة1180 م) (أبو القاسم سعد الله، 1985 م، ص 236) بمدينـة " الجزائر "، وكذلك عائلة " بن غبريط " و " بلحربيط "و " مورو " الّتي من الشّواهد المعتبرة على نسبتها لتلك البلاد ما ذكره " على الحمّامي " في إحدى تعليقاته الّتي أوردها في روايته التّاريخيّة " إدريس "، أين يقـول : (" إنّ ألقاب الأسر الأندلسيّـة، عكس مـا عليه الأمر في كثير من البلـدان العربيّة، تتّسم ببعض الخصائص التّركيبيّـة الّتي يسهـل من خـلالها معرفة أصـول حامليها، فهي إمّا أسمـاء عائلات " إسبانيّة " أو" برتغاليّة " قـديمة لا يزال يحملها الحفـدة الّذين هاجـروا واستقـرّوا بالدّيار المغربيّـة، والّتي من بينها : " طـورس "، " أراغـون "، " مـورو "، " سـوردو "، " دياز "، " مـارزو "، " لوبيرا "، " بريكسا "، " أميخـو "، " مدينا "، " مولينا "، أو هي عبارة عن صيغ تصغير لأسماء أو كنى عربيّـة قـديمة تعقب مباشرة لفظة " ابن "، ومن أمثلتها : " ابن خلدون "، " ابن زيدون "، " ابن حمدون "، " ابن ريسون "، " ابن شقرون "، " ابن حفصون "، أو هي أسماء متضمّنة إضافة " يط " في مؤخّرتها والّتي تعقب هي الأخـرى لفظة " ابن " الـدّالة على الانتسـاب، منهـا : " ابن غرنيط "، " ابن غبريط "، " ابن مجريط "، " ابن حربيط " الّتي صحّفت " بلحربيط ") (Aly El HAMMAMY, 1988 ; pp 216) ، ومن العائلات الأندلسيّـة أيضا غيرها نـذكر عائلة " بن يلّس " و " بن شنهـو " و " حصّـتار " و " سقّـال " و " فخّار " و " صبّان " و " العشعاشي "، والّتي لا يخفى على الباحث الميدانيّ تأثيرها في مجريات الأحداث بهذه المدينة وتأثيرها في العـديد من مجالات النّشـاط الإنسانيّ بها، وكما هو ملاحظ من ألقابها فإنّ بعضها منسوب للمدن الّتي

وفدوا منها مثـل " العقباني " و " قرموني " و " بسطاوي "، وبعضها منسوب للحرفة الّتي مارسها أسلافه والّتي لأجلها نسبت العـائلة إليها مثل " فخّار " و " صبّان "، في حين أنّ بعضها منسوب للجدّ الأكبر مثل " بن عمّار " و " بلحربيط " و " بن غبريط " ومن المحتمل أن يكون هذا الجدّ من أهل المآثر لذا من باب الاعتزاز والمفاخر نسب بنوه أنفسهم له فصارت عادة جارية في عقبه إلى أن صار لقبا دلاّ على نسله.

5. عائلة العشعاشي الأندلسيّة، تاريخ النّزوح:

ومن بين هذه العائلات الّتي كان ولا يزال لها تأثير عميق وفعّال في مختلف أوجه الحياة الاجتماعيّة بمدينة " تلمسان " نجد عائلة " العشعاشي " الّتي صارت نظرا لوجاهتها رمزا من رموز هذه المدينة، وقد عمدنا لإنشاء هذا المقال إلى جمع المادّة فيما يتعلّق بها من خلال مقابلة " الحاجّ عمر العشعاشي " و " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي " اللّذان استقبلانا بحفاوة وحدّثانا عن عائلتهما التّليـدة ممّا حفظاه من مرويات متـوارثة بها وممّا عايشـوه هم أنفسهم، فكان أن افتتحنا الحديث عن أصـل العائلة و كيف وفـدت إلى مدينة " تلمسان ".

فعن أصـل العـائلة حـدّثنا " الحاجّ عبد السّـلام العشعاشي " (أنّ أجـدادهم أخبروهم نقـلا خلفا عن سلف أنّهـم مـن " الأندلس "، وأنّه شخصيّا بعد أن راودته التّساؤلات عن هذا الأمر سعى إلى البحث عن موطنهم بـ " الأندلس " فعثر بعد بحث دؤوب على نصوص رجح لديه من خلالها أنّ أسلافـه كانـوا من ساكنة مدينة " بلنسية "، وأنّهم كغيرهم مـن أهل " الأندلس " قد هاجروا تلك الرّبوع جرّاء الاضطهاد وممارسات محاكم التّفتيش الّتي سلّطت عليهم، وأنّه على العكس ممّا أشيع ولا يزال يشاع في

الكتابات من أنّ مهاجري " الأندلس " كانوا حزانى لمغادرة مدنهم، كانوا فرحين بمغادرة الأرض الّتي لم تعد تتقبّل وجودهم والّتي اضطهدوا فيها بسبب اختلاف معتقدهم عن معتقد المتغلّبين عليها من " الإسبان "، فلهذا السّبب كان أجـدادهم من بين غادر" الأندلس "، وقد جرف السّفينة الّتي وفد إليها أجداده تيّار مائيّ إلى إحدى شواطئ " مستغانم "، فما كان إلاّ أن استقرّوا هناك وبنـوا بيـوتا من القصب وبعض النّباتات فصارت – على حـدّ تعبيره – شبيهة بمجمـوعة من " لعشاش "، أين أطلق على تلك المنطقة اسم " عشعاشة "تصحيفا لكلمة " لعشاش " تلك، والنّسبة إليها " عشعاشي "، والسّبب الّذي حملهم على بناء تلك البيوت من القصب والنّباتات وعدم بنائها بالطّوب أو الحجر هو أنّهم لم يستقبلوا من قبل الأهالي كما ينبغي، بل نظر إليهم نظرة عداء وريبة عموما نظرا لسحنتهم الشّبيهة بـ " الإسبان " منها إلى " العرب "، ثمّ إنّهم هم أنفسهم قد استشعروا أنّ الفرق في التّطوّر الحضاريّ بينهم وبين ساكنة العدوة الجنوبيّة كان كبيرا الأمر الّذي حملهم على بناء بيوت من قصب غير مكلفة على أمل الرّجوع مجدّدا لـ " إسبانيا "، وهذا الشّعور نلمسه لدى الكثير من الأندلسيّين على اختلاف المناطق الّتي حلّوا بها)(مقابلة مع " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي ") ، وهو ما تؤكّده الكثير من فتاوى مشايخ ذاك الزّمان عندما كان يستفتيهم أهل " الأندلس " في حكم البقاء بين ظهراني الكفّار ومساكنتهم، طمعا منهم في الحصول على فتاوى تجيز لهم ذلك نظرا لعزوفهم عن الارتحال للعدوة الجنوبيّة الّتي كانوا يرون أهلها أقلّ منهم باعا في التّحضّر، إلاّ أنّ كثيرا من تلك الفتاوى لم تكن موافقة لهوى أنفسهم، بل إنّ العديد من المشايخ أغلظ عليهم النّكير فيما يركنون إليه وحثّهم على الهجرة لديار الإسلام وإن كانت على غير ما يرغبون.

6. **عائلة العشعاشي بمدينة " تلمسان " وتأثيراتها بها:**

ثمّ لما توطّنوا " مستغانم " بعد أن لم تسنح لهم الفرصة بالعودة لـ " إسبانيا "، هـاجر جـدّهم المنسـوبين إليه مـن هناك إلى " تلمسان " عام 1725 م حسب ما أورده لنا " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي "، وعن تاريخ هذا الارتحال حدّثنا أخـوه " الحاجّ عمر العشعاشي " أنّ هـذا التّاريخ (" عثرنا عليـه في إحـدى الوثائـق الّتي لا تـزال موجـودة بأرشيف " دار القاضي " بمدينة " تلمسان "، والّتي ترجع للعهد العثمانيّ، غير أنّ ذخائرها للأسف الشّديد غير متاحة للباحثين، بل هذه الدّار موصدة لأسباب غير معلومة رغم أنّ الوثائق الّتي بها على قدر كبير من الأهمّيّـة باعتبارها تـؤرّخ لفترة لا تـزال الكثير من معالمها غير معلومـة بالنّسبة لنا) (مقابلة مع " الحاجّ عمر العشعاشي ") ، وفي السّياق ذاته أورد لنا " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي " (أنّ جدّهم هذا الّذي وفد مدينة " تلمسان " اسمه " محمّد العربي " وأنّه سكن بها بالمنطقة المسمّاة " سيدي لحسن " الكائنة بـ " الرّبط " غير بعيد عن " باب زير "، وقد اشتغل مدرّس أطفال، وكان له ابن اسمه " حجّي " تزوّج من إحدى بنات عائلة " بوكمال " الّتي اندثرت ولم يبق لها أثر اليوم) (مقابلة مع " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي ").

وقد انضوى أبناء هذه العائلة الوجيهة تحت لواء الطّريقة " الدّرقاويّة " وساهموا في التّرويج لها والتّعريف بها بما كانوا ينفقونه على نشاطاتها ومحافلها، نظرا لكونهم كانوا من كبار تجّار المدينة متوارثين هذه المهنة أبا عن جدّ، من بينهم (" الحاجّ حمّو " المولود سنة 1843 م والمتوفّى سنة 1931 م الّذي كان تاجرا، واستنادا لوثائق الحالة المدنيّة حينها فإنّه قد تزوّج مع السّيّدة الفاضلة " داوديّة فنطازي " ابنة " الحاجّ بوجنانفنطازي "، وتمّ ذلك في شهر أوت سنة 1868 م، وقد عقد قرانهما القاضي " أحمد بن

العنتري بوزار الكبير " بحضور الشّهود " محمّد بن الحاجّ الحصّار " و " أحمد بن حاج الدّين " و " الحاجّ محمّد بن محمّد مرابط ") (El hadj Mustapha LACHACHI, 2018, pp 69).

أمّا ابنه " الحاجّ محمّد العشعاشي " فقد (ولد سنة 1869 م، بمنزل جـدّه لأمّه بدرب " الشّيخ سيدي الحاجّ أحمد اليدّون "، وقد نشأ تحت الرّعاية الحريصة لوالده " الحاجّ حمّـو بن محمّـد بن الغـوثي بن حجّي "، حيث حرص على حسن تربيته، أين حفظ " القرآن الكريم " على يدي الشّيخ " غوتي بن ثابت " بمسجد " لالّة ريّة " الكائن بحومة " حارة الرّمى"، هذا إلى جانب حضوره دروس شيوخه " سيدي محمّد بن الحرشاوي " و " سيدي أحمد دكالي " مقدّم الطّريقة " الهبريّة الدّرقاويّة " و " سيـدي محمّـد بن دحمان العبّـادي " وآخرين غيرهم من علماء " تلمسـان ") (مقابلة مـع " الحاجّ عبد السّـلام العشعاشي ") ، وقد وصفه " الحاجّ عبـد السّـلام العشعاشي " بقـوله : (" كان – رحمه الله – سخيّا يجمع المريدين بمنزله الكائن بـ " سيدي عليّ بن قيم "، وكان من سعة أفقه أنّه يجمع مختلف مريدي الطّرق : العيساويّة، التّيجانيّة، الطّيبيّة، إلى جانب " الطّلبة "، ويحتفي بهم ويكرمهم خصوصا في المواسم والأعياد الدّينيّة، ولـمّا كان صادقا في نيّته وفي مقصده كتب الله له الوفاة بـ " المدينة المنوّرة " عام 1954 م، وقد وري جثمانه هناك بمقبرة " البقيع "، ومن مآثره أنّه هو الّذي اشترى الدّار الكائنة بشارع " بن زيّان " بوسط مدينة " تلمسان " غير بعيد عن قلعة " المشور " وأوقفها احتسابا لوجه الله تعالى زاوية للطرّيقة " الهبريّة الدّرقاويّة " سنة 1906 م ") (مقابلة مع " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي ").

وقد تزوّج " الحاجّ محمّد العشعاشي " بابنة الشّيخ الجليل " الحاجّ محمّد بن حاجّ علال بن بلحسن يلّس شاوش " – مع الإشارة إلى أنّ عائلة " يلّس " ذات أصول أندلسيّة هي الأخرى – تلميذ ومريد

الشّيخ " الهبريّ " رأس الطّريقـة " الهبريّة الدّرقاويّة "، وغير خاف على دارسي تاريخ هذه المدينة المعاصر التأثيرات الّتي أحدثها الشّيخ " بن يلّس " في توعية المجتمع التّلمسانيّ ومحاربة البدع والخرافات الّتي تفشّت فيه، حيث أنّــه حسب حفيــده لابنتـه " الحاجّ عبـد السّـلام العشعاشي " : (" هــو من قــام بتحريم " البكّائيّات " – أو كما يعرفن أيضا باسم " النّدّابات " – في الجنائز، وهنّ نسوة كنّ يكثرن البكاء والنّواح على الميّت بشكل يعارض معارضة صريحة تعاليم الإسلام فيما يتعلّق بأحكام الجنائز، وأحلّ بدل ذلك عن طريق مواعظه ما يعرف بـ " الذّكر " في الجنائز، وهو الّذي عمد إلى معارضة قانون " التّجنيد الإجباريّ " الّذي سنّ سنة 1908 م، وأفتى من باب عدم الامتثال له سنة 1911 م بوجوب الهجرة رفضا لهذا القانون، وأذاع الفتوى تلك الشّيخ " شلبي " من على منبر " الجامع الكبير " فحدثت بذلك الهجرة الشّهيرة في " تلمسان " وغيرها من المناطق استجابة لنداء أولئك الشّيـوخ، وقد كان " الحاجّ محمّد العشعاشي " صهره من المنفقين بسخاء على سبل الخيرات في سبيل مساعدة صهره، وفي جوّ هذه الزّاوية المباركة نشأ وترعرع بعد ذلك أب الوطنيّـة الجزائريّة والمناضـل الكبير " مصـالي الحاجّ " ") (مقابلة مـع " الحاجّ عبد السّـلام العشعاشي ") ، وهذا التّصريح يعطينا صورة جليّة عن مدى تغلغل هذه الزّاوية بتعاليمها الرّوحيّة في الأوساط الشّعبيّة وتأثيرها في مسار صناعة التّاريخ النّضاليّ الوطنيّ.

خلّف " الحاجّ محمّد العشعاشي " من ابنة الشّيخ " بن يلّس " ونسوة أخريات البنين والبنات، ومن بين أبنائه أحفـاد الشّيـخ " بن يلّس "، " الحاجّ محمّد العشعاشي " و " الحاجّ مصطفى العشعاشي "، الأوّل منهما يعدّ من كبار ملاّك الأراضي وله معصرة كبيرة، ونظرا لوجاهتــه فقــد عيّن حسب " الحاجّ عبـد السّــلام العشعــاشي " : (" عضــوا باللّجنــة المكلّفــة بتعيين الأئمّـة بـ " تلمسان "، كما أنّه

شارك وساهم في تمويل " مجمع مقدّمي زوايا إفريقيا الشّماليّة " الّذي انعقد بهذه المدينة سنة 1947 م، علاوة على كونه قد استقبل الملك اللّيبيّ " إدريس السّنوسيّ " ببيته عندما كان هذا الأخير متوجّها في زيارة لـ " المغرب الأقصى "، أين حلّ عنده ضيفا وقد قام برفقته بزيارة ضريح الوليّ الصّالح " سيدي أبي مدين الغوث " بقرية " العبّاد " سنة 1952 م ") (مقابلة مع " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي ") (لاحظ الصّورة).

أمّا ابنه " الحاجّ مصطفى العشعاشي " المولود يوم 28 جانفي 1892 م فإنّه حسب إفادة ابنه " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي " : (" قد اشتغل بالتّجارة مع والده ثمّ مع أخيه الأكبر " الحاجّ محمّد "، ثمّ بعد ذلك استقلّ بشؤونه وأسّس مصنعا خاصّا به، وقد كان هو الآخر من فقراء الطّريقة " الهبريّة الدّرقاويّة "، حيث أنّه تتلمذ على يد مقدّمها في زمانه الشّيخ " سيدي محمّد بلحاج الغرماوي " هو وأخوه " الحاجّ محمّد العشعاشي "، وقد كان جريا على سيرة أسلافه من أهل الكرم والبذل مثلما كان والده وأخوه وبنو عمومته، وقد بنى مسجدا بحيّ " فدّان السّبع "، شرع في إعماره سنة 1960 م وتماطل في بنائه عمدا رغبة منه أن يتمّ تدشينه والجزائر حرّة مستقلّة، وكان له ما أراد حيث تمّ ذلك سنة 1963 م، ليكون بذلك أوّل مسجد خاصّ تمّ تدشينه في الجزائر المستقلّة ") (مقابلة مع " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي ").

ومن أبناء " الحاجّ مصطفى العشعاشي "، " الحاجّ شعيب العشعاشي " الّذي حدّثنا عنه أخوه " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي "، حيث ذكر لنا أنّه : (" ولد يوم 11 جانفي 1916 م بمدينة " تلمسان " الّتي تلقّى بها تعليمه الابتدائيّ أين أتقن اللّغتين الفرنسيّة والعربيّة، وقد اشتغل مع والده بالتّجارة

إلى ما بعد زواجه، ثمّ بعد أن كبر أبناؤه استقلّ بتجارته معهم، وبعد أن كبر تخلّى عن التّجارة لأبنائه وتفرّغ للنّشاط الخيريّ متمثّلا في إعادة فتح وإعمار المساجد القديمة إلى جانب تخصيص مرتّبات شهريّة لمعلّمي " القرآن الكريم "، علاوة على بعض الأوقاف الّتي أوقفها لفائدة الطّلبة وحفّاظ " القرآن الكريم " ومعلّميه، وكان بيته مزارا لأهل الطّريقة يحيون فيه المناسبات بقراءة " القرآن الكريم " والذّكر، وقد انتقل إلى جوار ربّه – رحمه الله – ليلة الخميس 14 شعبان 1406 هـ / 23 أفريل 1986 م ") (مقابلة مع " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي ").

ومن أبناء " الحاجّ مصطفى العشعاشي " كذلك " الحاجّ عمر العشعاشي " الّذي حسب ما أورده لنا أخوه " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي " : (" كان من قدماء مناضلي " حزب الشّعب الجزائريّ " ومن رفقاء درب " مصالي الحاجّ " والمتشرّبين والمدافعين عن آرائه السّياسيّة") (مقابلة مع " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي ")، علاوة على كونه من الغيورين على تراث مدينة " تلمسان "، حيث ألّف في هذا السّياق مجموعة من الكتب تتطرّق لتاريخ هذه المدينة خصوصا المعماريّ منه والاجتماعيّ واللّهجيّ، وهي كتب على قدر كبير من الأهمّيّة كونها ارتكزت على دراسات ميدانيّة، من بينها " ماضي " تلمسان " المجيد "باللّغتين العربيّة والفرنسيّة، و " حماية تراثنا القديم المغاربيّ – الأندلسيّ " باللّغتين العربيّة والفرنسيّة هو الآخر، وهي مراجع قيّمة للباحث في تاريخ هذه المدينة.

أمّا أخوهما " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي " فهو الآخر من وجهاء هذه المدينة ومن المنفقين في سبل الخيرات، ومن كبار الصّناعيّين والتّجّار بهذه المدينة، ولم نورد عنه معلومات ضافية رغم مقابلتنا له كونه لم يرغب بذلك تواضعا وحرصا على كتمانه أعمال البرّ الّتي يقوم بها حفاظا على ثبوت الأجر.

7. نماذج من نشاط أفراد العائلة في الفترة الحديثة والمعاصرة:

تجدر الإشـــارة في نفس السّياق إلى ذكر ابن عمّ لـ " الحاجّ العشعاشي عبــد السّـــلام " هو " الحاجّ بلحاج مصطفى العشعــاشي "، وهو من كبار الصّناعيّين كــونه يمتلك مصنعا ضخما لإنتاج المادّة الأوليّة المستعملة في إنتاج طلاء الجدران بمدينــة " بور سعيد " بمصر، والّتي يصدّرها للعديد من الــدّول الغربيّة، وقد أسهم – رحمه الله – في إنشاء مركز إســـلاميّ ضخم بمدينــة " تلمسان " من نفقته الخاصّة، وجهّزه بأحدث التّقنيّات والمعدّات المستعملة في التدّريس، كما زوّده بمكتبة هائلة ثريّة بالمصادر والمراجع النّفيسة، هذا إلى جانب تزويده بعدد كبير من المخطوطات جلبها هي والكتب الآنفة الذّكر بالبواخر من " مصر " منفقا في سبيــل ذلك أمــوالا جليلة، ومبنى هــذا المركز من الضّخامة بحيث يمكن رؤيته من كلّ اتّجاه خــارج مــدينة " تلمسان "، لدرجة أنّه يمكن اعتباره أحد الصّروح المعماريّة الفخمة والممثّلة لرسوخ باع هذه المدينة في الإشعاع الحضاريّ.

واليوم لا تزال هذه العائلة محافظة على مكانتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة بهذه المدينة، ولا يزال الكثير من بنيها متوارثين مهنة التّجارة بها، غير أنّ تجارتهم ليست تجارة بسيطة بل هي تجارة متكاملة كونها تستند على النّشاط الإنتاجيّ، حيث يمتلك العديد من أفراد هذه العائلة مصانع خاصّة، منها ما ينتج المنسوجات الحريريّة المستعملة في صناعة ألبسة الأعراس التّقليديّة الخاصّة بالنّساء، ومنها ما ينتج الشّمع، وغيرها ينتج الكرتون ومواد تغليف البضائع، ومالك هذا الأخير لديه كذلك مطبعة خاصّة، وهناك آخرون غيرهم يمتلكون مصانع أخرى، لذا فهذه العائلة تعتبر من العائلات المساهمة بفعاليّة في ديناميّة الحياة الاقتصاديّة بهذه المدينة.

وهناك آخرون ممّن ينتمون لهذه العائلة انصرفوا عن التّجارة والصّناعة وآثروا التّوجّه لقطاعات اقتصاديّة أخرى أهمّها القطاع العلميّ، حيث أنّ العديد منهم درسوا خصوصا الطّبّ وصاروا من كبار أطبّاء هذه المدينة، ونظرا لثراء عائلتهم فإنّهم درسوا الطّبّ بالدّول الأوروبيّة، وعقب تحصّلهم على الشّهادات عادوا لمزاولة هذه المهنة النّبيلة بمسقط رأسهم، في حين أنّ غيرهم توجّه للنّشاط الفلاحيّ، غير أنّ نشاطهم هذا ليس نشاطا تقليديّا بل يعتمد على أحدث الوسائل والآلات، علاوة على أنّه مقرون بالنّشاط التّصنيعيّ محقّقا بذلك دورة إنتاجيّة متكاملة.

***خاتمة:**

من خلال ما سبق إيراده يتّضح لنا أنّ هذه العائلة لها وزن كبير في الحياة الاجتماعيّة من خلال إسهاماتها فيها بالتّمويل والحرص على الحفاظ على تراث ومكانة هذه المدينة العريقة، وما ذكرناه يعتبر غيض من فيض من إنفاق هذه العائلة الوجيهة على مختلف المشاريع بهذه المدينة، سواء منها المشاريع الرّبحيّة المساهمة في تنميّة الاقتصاد المحلّي والوطنيّ على حدّ سواء، أو المشاريع الوقفيّة، لذا تعدّ من كبريات العائلات التّلمسانيّة، فلا تذكر هذه المدينة وعوائلها الكبيرة إلاّ وكانت من بين العائلات المتصدّرة للذّكر الحسن والثّناء الجميل.

صورة الملك اللّيبيّ " إدريس السّنوسيّ " متوسّطا الحاجّ محمّد العشعاشي وابنه سنة 1952 م..

1/ المصادر والمراجع:

أ/ باللّغة العربيّة:

1- محمّد درّاج، " الدّخول العثمانيّ إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس(1512 م - 1543 م)، الطّبعة الثّالثة، شركة الأصالة للنّشر : الجزائر العاصمـة - الجزائر، 2015 م، ص 64 - 65.

2- أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطيّ المغربيّ، " كتاب الجغرافيا "، الطّبعة الثّانية، ديوان المطبوعات الجامعيّة : الجزائر العاصمة - الجزائر، 1982 م، ص 140.

3- محمّد الطّالبي، " الهجرة الأندلسيّة إلى إفريقيا أيّام الحفصيّين "، مجلّة " الأصالة "،مطبعة البعث : قسنطينة – الجزائر، العدد 26، السّنة الرّابعة، 1975 م، ص 51.

4- أبو القاسم سعد الله، " تاريخ الجزائر الثّقافيّ "، طبعة خاصّة، دار البصائر: الجزائر العاصمة - الجزائر، 2007 م، ج 1، ص 148 - 149.

5- عادلنويهض، " معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحديث "، الطّبعة الثّانية، مؤسّسة نويهض الثّقافيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر : بيروت – لبنان، 1980 م، ص 236.

6- " المنجد في الأعلام "، الطّبعة الثّانية، دار المشرق : بيروت – لبنان، 1969 م، ص 357 بتصرّف.

7- أبو القاسم سعد الله، " تاريخ الجزائر الثّقافيّ : من القرن 10 هـ إلى 14 هـ / 16 م إلى 20 م "، الطّبعة الثّانية، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب : الجزائر العاصمة – الجزائر، 1985 م، ج 2، ص 236.

ب/ باللغة الأجنبيّة:

8. Aly EL HAMMAMY, « IDRIS », 2 édition, EntrepriseNationale du Livre : Alger - Algérie, 1988, p 216.

9. El hadj Mustapha LACHACHI, « Lachaîned'orou les fastes de la tariqaDerqawiya », Konouzéditions : Tlemcen – Algérie, 2018, p 69.

2/ المقابلات:

1- مقابلة مع " الحاجّ عبد السّلام العشعاشي " بتاريخ 2018/09/29 م على السّاعة 12:30.

2- مقابلة مع " الحاجّ عمر العشعاشي " بتاريخ 2018/10/21 م على السّاعة 18:35.